أثر اللّهجات العربيّة في تحقيق معاني القرآن

The impact of Arabic dialects in the realization of the meanings of the Koran

الدكتور: صالح تقابجي

أستـــــــاذ محـــاضر أ

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة البليدة (02)

ملخّص:

لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) بأفصح ما تسمو إليه لغات العرب جميعا في خصائصها العجيبة ما كان سّببا في جزالتها ودقّة ألفاظها وإحكام نظمها، وهي إن اختلفت في بعض مستويات اللّغة إلاّ أنّها تتّفق في المعنى الّذي من أجله صار العرب جميعا يخضعون للفصاحة، وقد استوفى القرآن الكريم أحسن ما في تلك اللّغات من ذلك المعنى، قال تعالى:{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف 44] ، كما أنّها تلحق بمعاني الإعجاز؛ وهي أن تكون الألفاظ في اختلاف بعض صوّرها ممّا يتهيّأ معه استنباط حكم أو تحقيق معنى من معاني الشّريعة، قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: 18]؛ أي سياق الآيات، والحكمة من ذلك هي تيسير القراءة والحفظ على قوم أمّيين، قال تعالى:{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الجمعة: 2].

ومن المعروف أنّ وفود القبائل كانت تأتي لرسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، فتحدّثه بألفاظ تبدو غريبة أحيانا للصّحابة من حوله، ومن ذلك ما قاله سيد

المنارة للاستشارات

قوم بعدما استثاره الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم): أأزدجر وأنا رجل كبّار في مقام جدّك يا قسورة العرب، إنّ هذا لشيء عجاب، فكان ردّ الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) بأنّ الله قد أكرم قبيلتهم بورود هذه الكلمات في القرآن الكريم، فقريش لم تكن تعرف هذه الألفاظ في قوله تعالى:{ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} [القمر : 4]، وقال أيضا:{ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} [المدّثر : 51]، وقال أيضا:{ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص : 5].

الكلمات المفتاحيّة: لغة القرآن، لهجات العرب، اختلاف اللّهجات، الأثر الدّلاليّ.

Abstract :

Quran has descended upon the Messenger of Allah (peace be upon him) most eloquent what transcends the languages of all the Arabs in their properties Wonder what was the cause of Djazala and accuracy add to their wording and tighten their systems, namely, that differed in some language levels but they agree in the sense that for him has become Arabs all are subject to eloquence, has fulfilled the Koran best of those decoration: 44, it is also attached to :languages of that meaning, he says the meanings of miracles; it is that the words are in a difference of some forms which prepares him to devise judgment or achieve a sense of the Resurrection: 18; any context eBay pages Bh squirt Bam :law, he says verses, and the wisdom of this is to facilitate the reading and saving the Friday: 2 :people are illiterate, he says

It is known that the delegations of tribes used to come to the Messenger of Allah (peace be upon him), Vthdth verbally strange looks sometimes companions around him, including the master of the people said, after raising the Prophet (peace be upon him): Oozadgr and I am a senior at the shrine of your grandfather, my lion? Arabs, if this thing Ajab, was the response of the Prophet (peace be upon him) that God had Akram tribe receipt of these words in the Koran, Vgarih were not know Amma: :Noah, 22, also said :moon: 4, also said :these words in the verse r: 5 50-51, also he said.

Key words: the language of Koran, the dialects of Arab, the .accentual differences, the semantic trace

المنارة للاستشارات

1)- **لغة القرآن:** توفي رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) والقرآن محفوظ في صدور الصحابة، ومدوّن على ما تيّسر من الرّقاع والعسب وألواح الأكتاف، "وإن لم يجمعه كتاب واحد غير أنّ النّبي (صلّى الله عليه وسلم) لم يكتف بأن يحفظه الصّحابة (رضوان الله عليهم) في صدورهم بل ندب لتدوينه عددا من الكتّاب، وكان هو الّذي يحدّد موضع كلّ آية من سورتها بتوجيه الوحي"[1]، فالقرآن كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وقد تكلّم فيه بلغاء الأدباء وأهل التّفسير، ومنهم على سبيل الذّكر لا الحصر الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) الّذي وضع كتابيه (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز) لإثبات ذلك بطريقة فنيّة وقواعد علمية، كما صنّف الشّيخ القاضي أبي بكر الباقلاّنيّ (ت403هـ) كتابه (إعجاز القرآن) وغيرهم كثير، فإعجازه " ليس في العجب أبدع منه، إنّه وجود لغويّ ركّب كلّ ما فيه على أن يبقى خالدا مع الإنسانيّة، فهو يدفع عن هذه اللّغة العربيّة النّسيان الّذي لا يدفع عن شيء"2، إذ تذكر اللّغة به، وبذلك يحفظها. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يدعو النّاس إلى العودة لشعر الجاهليّة، فيقول: " أيّها النّاس، عليكم بديوانكم لا تضلّوا .. شعر الجاهليّة، فإنّ فيه تفسير كتابكم " 3، ولذا لجأ العرب إلى الشّعر عندما كانوا لا يفهمون بعض الألفاظ الّتي جاءت في القرآن الكريم، " أمّا الألفاظ الشّرعيّة فقد تولّت السّنة توضيحها عندما عجزت لغة الشّعر عن توضيحها"4 .

فاللّغة الّتي كتب بها الشّعر الجاهليّ لا يمكن أن تكون بدايتها ما آلت إليه في هذه الفترة، إنّما كانت في قمّة نضجها؛ وهو مستوى لا تبلغه اللّغات قبل أن تمرّ بمراحل نشأة وتطوّر قد تصل إلى عشرات القرون قبل أن تستوي وتبلغ درجة عالية، فمن خلال هذه المراحل التّطوريّة تهذّبت صيغتها، وارتقت أصواتها،

المنارة للاستشارات

وتحسّنت تراكيبها، وصقلت معانيها، كما احتكّت باللّغات المجاورة لها، فاستقت منها بعض الكلمات ليكتمل كيانها اللّغويّ، " غير أنّ الحالة الّتي كانت عليها اللّغات السّاميّة جميعا قبل الإسلام تدلّ على أنّ العربيّة كانت أفضلهنّ وأرقاهنّ، ويستنتج من هذا أنّها أعرقهنّ على الإطلاق، وقد أشار إلى هذا الرأي التّاريخيّ الأستاذان العقاد، ومحي الدّين الخطيب"5.

وبالرّغم من أنّ العربيّة ارتقت إلى درجة ساميّة في مجال الشّعر والنّثر وسائر فنون التّعبير، فإنّها ازدادت رقيا ورفعة وتحصينا بنزول القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء: 195]، " فنزول القرآن وإعجازه للعرب كان بمثابة الثّورة الثّقافيّة إذ فتحت أبواب البحث اللّغويّ بداية الأمر من أجل فهم وتفسير آي القرآن، وتطوّر إلى أن نشأت علوم أخرى لغويّة وغير لغويّة..."6. فقد جعل الله القرآن عربيّا بلسان قوم الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) ليفهموه بمجرد تلاوته أو سماعه؛ قال تعالى:{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [الدخان : 58]، ليكون في إعجازه "مشغلة العقل البيانيّ العربيّ في كلّ الأزمنة..، كما أنّه مشغلة الفكر الإنسانيّ إذا أريد درس أسمى نظام للإنسانيّة في حرامها وحلالها، مما تحلّه مصلحة الاجتماع أو تحرّمه"7، كما بعث الله كلّ رسول بلسان قومه، حيث يقول في محكم تنزيله:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم : 4].

2) –لهجات القبائل العربيّة:

1/2–تباين لهجات القبائل العربيّة: وسبب ذلك هو تعدّد لهجات القبائل العربيّة من غير قريش أو الميل الطّبيعيّ العفويّ إلى تسهيل النّطق، أو الاعتراف بقراءات القرآن الكريم كما أقرّها الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، فقد سكن شبه جزيرة العرب شعبان هما: العدنانيّون بالحجاز والقحطانيّون باليمن، ولكن بعد سيل العرم تفرّق

المنارة للاستشارات

القحطانيون فنزحوا نحو الشّمال، فمنهم من استقر به الحال في العراق ومنهم من لجأ إلى بلاد الشّام ومنهم من سكن في المدينة كالأوس والخزرج، وكان كلّ شعب يتكلّم بلغته وكلّها لغات فصيحة ولكنّها تختلف في مدلولات بعض الألفاظ وفي بعض اللّهجات باختلاف القبائل؛ لذلك غلبت على القحطانيين لهجة حمير، فإنّها أماتت السّبئيّة والمعينيّة وغيرهما، وكذلك لهجة قريش غلبت في العدنانيّين بل إنّها غلبت الحميريّة نفسها؛ فقد سادت بحكم موقعها في مكّة الّتي كانت ولازالت مزارا للقبائل العربيّة يحجون إليها كلّ عامّ، كما كانت تقام الأسواق ويحضرها شعراء العرب وخطباؤهم؛ فكانت قريش تختار اللّفظ العذب الجرس، الخفيف الوقع على السّمع، فتدخله في لهجتها، فاجتمع لها من كلّ ذلك زاد لغويّ واسع أضيف إلى لغتها، وبذلك أصبحت لهجة قريش أغنى اللّهجات العربيّة، واللّغة الّتي يتفاضل بها الشّعراء والخطباء في أسواق عكاظ وذي المجاز وغيرها، فانتقلت معهم إلى قبائلهم وانتشرت في الجزيرة العربيّة، وسادت قبل بعثة الرّسول محمد (صلّى الله عليه وسلّم)، فكان ذلك تمهيدا لنزول القرآن الكريم بلهجة قريش"8.

وهناك عوامل أخرى جعلت اللّهجات العربيّة تختلف من حيث الإبدال، وأوجه الإعراب، والتّرادف، والإتمام، والنّقص؛ وممّا ميّز تلك اللّهجات، ذكر ابن جنّي الآتي9:

أ-عجعجة قضاعة: وهي تحويل الياء جيما إذا وقعت بعد العين، مثل: الرّاعج خرج معج، في: الرّاعي خرج معي.

ب-شنشنة اليمن: وهي جعل الكاف شينا مطلقا، مثل: لبيش، في لبيك، وشلّمني، في كلّمني.

ج- طُمطُمانية حمير: وهي جعل (أم) بدل (أل)، مثل: طاب امهواء في امسفر، في: طاب الهواء في السّفر.

د-تلتلة بهراء: وهي كسر حرف المضارعة مطلقا.

المنارة للاستشارات

هـ- فحفحة هذيل: وهي جعل الحاء عينا، مثل: العسن أخو العسين، في الحسن أخو الحسين.

و-قطعة طيء: وهي حذف آخر الكلمة، مثل: يا أبا الحكا، في: يا أبا الحكم.

2/2-الاختلاف الصوتيّ للّهجات العربيّة:

يقصد بذلك الصّفات الصوتيّة الّتي كانت عليها اللّهجات العربيّة، وهو ما كان سببه إبدال صوت بآخر، سواء أكانا صوتين صامتين أم كانا صائتين، أم كانا أحدهما صائتا طويلا والأخر صائتا قصيرا متّفقين في المخرج أو متقاربين، ويختصّ هذا الجانب بأكثر الظّواهر اللّهجيّة العربيّة بروزا وانتشارا قديما وحديثا على امتداد الوطن العربيّ، وبيان هذه الخصائص اللّهجيّة كالأتي:

أ-تسهيل الهمز: جاء في اللّسان بيان لمواطن تخفيف الهمز فقد نقل عن أبي زيد أنّه قال: " أهل الحجاز وهذيل وأهل مكّة والمدينة لا ينبرون، فقال: ما آخذ من قول تميم إلاّ بالنّبر وهم أصحاب النّبر، وأهل الحجاز إذا اضطّروا نبروا، قال: وقال أبو عمرو الهذليّ قد توضيت، فلم يهمز وحوّلها ياء"10، ويقصد بالنّبر تحقيق الهمزة، فالتّميميّون ومن جاورهم ينبرون، والحجازيّون لا ينبرون، فالتّسهيل مساير للتّيسير الّذي تميل إليه الطبيعة البشريّة، وأوضح صورة لهذا النّهج اللّهجيّ نجدها في القراءات القرآنيّة، " فقد أفرد له علماء العربيّة أنواعا تخصّه، وقسّموا تحقيقه إلى واجب وجائز...، وقال بعضهم: لغة أكثر أهل العرب الّذين هم أهل الجزالة والفصاحة ترك الهمزة السّاكنة في الدّرج، والمتحركة عند السّكت"11، فالفعل (رأى) تحذف عينه (همزة) في المضارع والأمر منه، نقول: (يرى) و(رَ)، وتسهيل الهمز في اللّهجات العربيّة الحديثة ظاهر، كما في قولنا: توضيت..، يقول الدّكتور إبراهيم أنيس:" الهمزة هي صوت شديد لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، لأنّ فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقا تامّا...، ولا شكّ أنّ انحباس الهواء عند المزمار انحباسا تامّا ثمّ انفراج المزمار فجأة، عمليّة تحتاج إلى جهد عضليّ..، ممّا يجعلنا نعتدّ الهمزة أشقّ الأصوات"12. ومن العرب من يقلب الهمزة (ياء)،

المنارة للاستشارات

فيقول في (أرجأ)، يقول: أرجيت؛ كما في قوله تعالى: {تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء} [الأحزاب: 51]، وقد تحذف في الاستفهام؛ كقولنا: أابنك هذا؟ ونحو: أريت؟ في (أرأيت)، وتكون الهمزة أشدّ ثقلا على اللّسان إذا اجتمعت مع همزة أخرى في الكلام، كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} [السجدة: 10].

ب–الإمالة: وهي "أن تميل الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة، وجمهور علماء اللّغة يرون أنّ الإمالة لهجة بدويّة انتشرت بين قبائل أهل نجد ومن جاورهم ....، وأنّ الفتح لهجة حضريّة انتشرت بين قبائل أهل الحجاز ومن جاورهم"13؛ وهي في أشهر معانيها إصدار الصّوت ما بين الفتحة والكسرة في الممدود بالألف. فالإمالة لهجة عربيّة كانت شائعة بين القبائل النّازلة وسط شبه الجزيرة العربيّة وشرقها، وخصوصا الإمالة قبل هاء التّأنيث، فهي باقية إلى الآن في بعض المناطق العربيّة كالعراق؛ وذكر ابن الجزري فائدة الإمالة في قوله: " أما فائدتها فهي سهولة اللّفظ، وذلك أنّ اللّسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخفّ من الارتفاع ومن الفتح"14، فإنّه راعى كون الفتح أمتن أو هو الأصل.

ج–الإشمام: ويكون بالإشارة إلى الحركة (الصّائت الصّغير) بالشّفة من غير تصويت، ويتقنه قراء القرآن الكريم عند التّلاوة، والواقع أنّ الإشمام ليس صوتا بل هو حركة عضليّة بالشّفاه فقط، القصد منها على قول النّحاة بيان أنّ الموقوف عليه مضموم.

د–الفكّ: وهو إخراج كلّ حرف من مخرجه بوضع السّكون عليه، وبعبارة أخرى هو فصل الحرف الأوّل عن الثّاني؛ كما جاء في قوله تعالى: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ} [لقمان: 19].

هـ– الإدغام: وهو وصل حرف ساكن بحرف مثله والنّطق بهما حرفا مشدّدا؛ مثل فكّ المثلين في المضارع المجزوم بالسّكون المضعّف وأمره عند الحجازيّين، كقولهم: إن يغضض طرفه فاغضض طرفك، وإدغامهما عند تميم، نحو قولهم: إن

المنارة للاستشارات

يغضّ طرفه فغضّ طرفك؛ كقوله عزّ وجلّ:{ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [النور : 30]، فالنّطق بالحرفين المتقاربين مخرجا أو المتّفقين يكون ثقيلا على اللّسان، لهذا السّبب جعل الإدغام لتسهيل النّطق الّذي يقول فيه أبو عمرو بن العلاء: " الإدغام كلام العرب الّذي يجري على ألسنتها ولا يحسنون غيره "15؛ فلفظ (محمّد) ينطقها العجم: (مهمد) أو (مؤمد) مخففة لأنّهم لا يستطيعون نطقها مشدّدة إلاّ إذا تكلّفوا الأمر فكان لهم ذلك بمشقّة وبعد طول تدريب.

3/2-الاختلاف اللّهجيّ في بنية الكلمات: يحصل هذا الاختلاف بتغيير حركة أحد حروف هذا المبنى، وأظهر ما يكون ذلك في حركة عين المضارع في الثّلاثيّ نحو: " قَنَطَ يَقْنِطُ ويَقْنُطُ قُنُوطاً .. ، قال ابن جني: قَنَطَ يقنَط كأبى يأبى، فيه لغة ثالثة، قَنَطَ يَقْنَطُ قَنْطاً...، وقال الأزهري: وهما لغتان: قنط يقنُط، وقنط يقنِط قنوطا في اللّغتين"16، ومثله: مادّة (هلك) يهلِكُ ويَهْلَكُ، ونزعَ ينْزَعُ ويَنْزِعُ، وركنَ يركنُ ويركَنُ...، فقد أدرك علماؤنا القدامى أنّ حركة العين في المضارع غير مستقرّة في اللّهجات العربيّة لأنّها غير قياسيّة، حيث عقد السّيوطيّ بابا في المزهر سمّاه: " ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز وتميم، ومنها: أهل الحجاز يقولون: يبطِشُ وتميم: يبطُشُ"17، وكما في القراءات: "حسب يحْسَبُ ويَحْسِبُ، ونفرُغ لغة الحجاز، ونفرَغُ تميمية، ونَفْرِغُ لغة مضر"18.

3-بين الأحرف والقراءات: لم يكن الفرق موجودا في عصر النّبوة بين كلمة (حرف) وكلمة (قراءة)، فقد ورد كلّ من الكلمتين بالتّبادل في أحاديث كثيرة؛ ومنها ما روي عن عمر (رضي الله عنه) أنّه قال: «.. يا رسول الله إنّي سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): اقرأ يا هشام، فقرأ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): هكذا نزلت، ثمّ قال (صلّى الله عليه وسلّم): اقرأ يا عمر، فقرأت، فقال (صلّى الله عليه وسلّم): هكذا نزلت، ثمّ قال (صلّى الله عليه وسلّم): إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر

المنارة للاستشارات

منها"–صحيح البخاري–. وقد اختلف العلماء في تحديد المراد بالأحرف السّبعة الواردة في حديث الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم)، وتعدّدت الأقوال بهذا الشّأن ذلك أنّه لم يأت نصّ ولا أثر ليوضّح معنى هذه الأحرف فاختلف النّاس في تعيينها، والّذي مال إليه كثير من أهل العلم في شرحهم لمعنى الحديث أنّه أنزل على سبع لغات لسبع قبائل، " قال ثابت بن قاسم: لو قلنا هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتميم، ومنها لضبة وألفافها، ومنها لقيس، لكان أتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تستوعب اللّغات الّتي نزل بها القرآن، وسبب سلامتها أنّها في وسط جزيرة العرب في الحجاز ونجد وتهامة فلم تختلط بالعجم"19، فقد عبّر ابن قتيبة عن الحكمة من هذا الاختلاف بقوله: " فكان من تيسيره أن أمره أن يقرئ كلّ قوم بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم...، ولو أنّ كلّ فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلا، وناشئا، وكهلا لاشتدّت عليه"20.

ويبقى المقصود بالأحرف السبّعة في دائرة الخلاف بين العلماء، إلاّ أنّ أغلب الظّن أنّها فوارق نطقيّة بين القبائل؛ كالإمالة والهمز والتّسهيل وإشباع الضّمائر، وغير ذلك من الأمور الّتي تدخل في علم الصّوتيات، فإذا كان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– قد حصر عدد الأحرف في سبعة، فإنّ القراءات الّتي نقلت إلينا ليست محصورة في عدد معين، "وقد كان الصّحابة (رضوان الله عليهم) يكرهون أن ينسبوا القراءات إلى من يقرأ بها نظرا لمكانة الفطرة اللّغويّة منهم، فلمّا فسدت السّليقة في المتأخّرين نسبوا كلّ قراءة لرأس أهلها"21؛ غير أنّ كتّاب التّراجم والسّير عندما تعرّضوا للقرّاء كانوا يميّزون بين أداء القارئ وروايته، فيسمّون الأوّل قراءة والثّاني حرفا، "وقد يجتمع في الشّخص الواحد القراءة ورواية الحروف، كما كان الحال بالنّسبة لكثير من الصّحابة والتّابعين، وعدد من مشاهير القرّاء، مثل حمزة وخلف والكسائي.."22.

المنارة للاستشارات

من أجل ذلك لام كثير من العلماء ابن مجاهد لأنّه اقتصر على سبعة قرّاء، وبهذا فهو يوهم النّاس ويوقعهم في اللبس، كما قال السّيوطي:" مسبّع السّبعة فعل ما لا ينبغي، وجعل الأمر مشكّلا على العامّة باختياره فظنّ كلّ من قلّ نظره أنّ هذه القراءات هي المذكورة في الحديث، وليته إذا اختار نقص عن السّبعة أو زاد عليها ليزيل الشّبهة "23؛ وأوّل من ألّف في القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام الرّاوية (ت 224هـ)، ويقال أنّه أحصى منها خمسا وعشرين قراءة مع السّبع المشهورة، ويرى العلماء أنّ " أصحّ القراءات من توثيق جهة سندها: نافع وعاصم، وأكثرها توخّيا للوجوه الّتي هي أفصح: أبو عمرو، والكسائي"24.

ولعلّ من أسباب اختلاف لهجات القبائل وجودهم في بيئات مختلفة، وكثرة حلّهم وترحالهم، واختلاف معيشتهم، وتنوّع المرئيات، وغير ذلك؛ وخلاصة القول أنّ " العربيّة قد اشتملت على لهجات مختلفة، ومن البديهيّ أن يكون هناك خلاف بين تلك اللّهجات لاختلاف البيئة، وعلى هذا فإنّ كلّ ما عمل على الإبدال يدخل ضمن هذا الاختلاف اللّهجيّ بين القبائل العربية "25، فالأصل أنّ القرآن نزل بلغة قريش لأنّها خلصت إلى التّهذيب، بيد أنّه استعمل الكلمة الواحدة على منطق أهل اللّغات المختلفة، فجيء بها على وجهين لمناسبة في نظمه؛ "(كبراء)، و(بريء)، فإنّ أهل الحجاز يقولون: أنا منك براء، وتميم وسائر العرب يقولون: أنا منك بريء، واللّغتان في القرآن، وكذلك قوله تعالى: {قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ} [هود : 81]، وقوله:{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} [الفجر : 4]، فإنّ الأولى لغة قريش ، يقولون: أسريت، وغيرهم من العرب يقولون: سريت، كما أنّ الحجازيّين يفكّون الإدغام كما في قوله تعالى:{ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} [النساء : 115]، وتميم تدغم؛ نحو: (من يحلّ)، و(من يشقّ)"26، أمّا قبيلة حمير فكانوا يقرؤون قوله تعالى:{ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ

المنارة للاستشارات

قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [البقرة : 177] " { ليس أمبر أن تولوا وجوهكم} ما دام يعسر عليهم نطق (ال) فينطقونها (أم)"27، كما ثبت عن الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) أنّه خاطبهم بلهجتهم قائلا: " ليس من امبرّ امصيام في امسفر ".

فالقبائل العربية تختلف في نطق بعض الكلمات وهو اختلاف لهجي من حيث الاتّجاهات، كما أنّ لكلّ قبيلة نمط عيش خاصّ وتقاليد متّبعة، علاوة على التّعصّب السّائد عند عرب الجاهليّة إلى أن جاء الإسلام فراعى ذلك ولم يلزمهم ما لا يطيقون رحمة بهم، ورفقا من الله الرّحيم فهو أعلم بخلقه، " وهذا ما يوضّح صورة الأعراب، ومدى تمسّكهم بلهجاتهم وعاداتهم الكلاميّة لا يؤثر فيهم تلقين ولا تمرين؛ ومن هنا فإنّ الرّأي الّذي يفسّر هذه الأحرف السّبعة المنصوص عليها في الحديث أنّها اختلاف لهجي، وهو اختلاف صوتي"28، ولعلّ قصّة عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء في مسألة " ليس الطّيب إلاّ المسك " توضّح ذلك الاختلاف، فما من تميميّ إلاّ ويرفع وما من حجازيّ إلاّ وينصب بالسّليقة، ويعدّ ذلك السّبب الأوّل الّذي من أجله " اختلفت بعض ألفاظ القرآن في قراءتها وأدائها اختلافا صحّ جميعه عن رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) وصحّت قراءته، وهو كان أعلم العرب بوجوه لغتها"29، وقد فسّر ذلك ابن قتيبة الّذي بقوله: " فكان من تيسير الله تعالى لأمر نبيّه (صلّى الله عليه وسلّم) بأن يقرئ كلّ أمّة بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم؛ فالهذليّ يقرأ: {عتى حين} يريد: {حتّى حين} هكذا يلفظ بها ويستعملها، والتّميميّ يهمز، والقرشيّ لا يهمز...، وهذا يقرأ: {عليهم وفيهم} بالضّم..."30 إلى غير ذلك، ثمّ قال:" لو أنّ كلّ فريق من هؤلاء طلب منه أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا لاشتدّ عليه وعظمت المحنة، ولم يمكنه إلاّ برياضة للنّفس طويلة، وتذليل للّسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته أن يجعل لهم متّسعا في اللّغات، ومتصرّفا في الحركات كتيسيره عليهم في الدّين"31.

المنارة للاستشارات

ورغم هذا الخلاف اللّهجيّ الّذي كان سائدا بين القبائل العربيّة " إلاّ أنّ العرب حين استنصفوا لهجة قريش، وجعلوها لغتهم الأدبيّة المشتركة أثّروا فيها مثلما تأثّروا بها، فصدق على لهجة قريش ما يصدق على اللّغات جميعا من قوانين التّأثير والتّأثّر؛ وهي قوانين تكاد تختلف إذا درسنا اللّغة على أنّها ظاهرة إنسانيّة"32؛ وهو ما ذهب إليه الدّكتور عبد المنعم النّمر حين قال:" .. فالمسلمين الأعاجم غير العرب لا يستطيع لسانهم أن ينطق ببعض الحروف كما نطقها العربيّ؛ مثل (الحاء) فهم ينطقونها (هاء)، فيقولون (الهمد لله) في قوله تعالى:{ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة : 2]، كما ينطقون العين همزة أحيانا، مثل (عبد الله) ينطقونها (أبد الله)، ولو حاولت منع الأعاجم من قراءة (الحمد لله) بالحاء لما استطعت بسهولة، بل عسر عليهم وعليك"33، ثمّ واصل كلامه وهو يتساءل: "هل نمنع الملايين من المسلمين الآن من قراءة (الهمد لله)، وتحرم صلاتهم وقراءتهم أو أنّنا نقيس على ما حصل حين نزل القرآن من قصد التّيسير على العرب، وإباحة استبدال حرف بحرف، ومن هذا تكون قراءة (الهمد لله) جائزة رحمة من ربّ العالمين"34.

والفرق الّذي يفصل بين أراء القدماء والمحدثين من حيث العموم والخصوص، فإنّ القدماء " يحصرون هذه الأحرف في اللّهجات العربيّة في حين يجعلها المحدثون أعمّ وأشمل، أي: قصد التّيسير والتّسهيل يشمل جميع المسلمين على اختلاف ألسنتهم وأزمانهم في الماضي والحاضر والمستقبل؛ لأنّ القرآن مصلح لكلّ زمان ومكان"35، وعند بعض العلماء أنّ المراد بالأحرف " اللّغات الّتي تختلف بها لهجات العرب حتّى يوسع على كلّ قوم أن يقرؤوه بلسانهم، وما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلاّ اللّغة "36، ومن العلماء ما يراها سبعة وجوه للقراءة، وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى القراءات الّتي هي في الأصل فروق لغويّة؛ ومنها ما يلي:

المنارة للاستشارات

أ)- إبدال لفظ مكان لفظ، كما في قوله تعالى:{ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة : 5]، حيث قرأها ابن مسعود: { كالصّوف المنفوش}.

ب)- إبدال حرف بحرف، كقوله عزّ وجلّ:{ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ} [طه : 39] قرئت:(التّابوه).

ج)- تقديم وتأخير إمّا في كلمة، مثل: (الموت الحقّ) قرئت: (الحقّ الموت)؛ كقوله تعالى: {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق : 19]، وإمّا حرف بحرف، مثل قوله تعالى: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف : 87]، قرئت: (يأيس).

د)- زيادة حرف أو نقصانه، كقوله تعالى:{ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ} [الحاقة : 28] (مالي)، وقوله أيضا:{ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ}[هود : 17] (تكن).

هـ)- اختلاف حركات البناء، كما في قوله تعالى:{ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ}[إبراهيم : 47] (فلا تحسبنّ - بفتح السين وكسرها-) .

و)- اختلاف الإعراب، كما في قوله تعالى:{ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف : 31]، بإعمال (ما)- لغة الحجاز- وهي أشيع في الاستعمال، وقرأها ابن مسعود بالرّفع (بشر) بإهمال (ما) - لغة تميم- وهو أقيس؛ لأنّ الحجازيّين قاسوها على (ليس) لاشتراكهما في نفي الحال، والتّميميّين قاسوها على (هل) في كونهما غير مختصّين، والأصل في الحروف غير المختصّة ألاّ تعمل، ولكن الاستعمال غلب القياس فكان الإعمال أشيع من الإهمال.

المنارة للاستشارات

فالقراءة سنّة متّبعة، والمصير إليها بالإسناد لا بالرّأي، والقياس عند العلماء موافقة القراءة للعربيّة بوجه من الوجوه سواء أكان أفصح أم فصيحا، ثمّ يشترط في تلك القراءة أن توافق أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالا، وأن تكون مع ذلك صحيحة الإسناد، وأمّا موافقة رسم أحد المصاحف العثمانيّة فذلك لما صحّ عندهم من أنّ الصّحابة (رضي الله عنهم) اجتهدوا في الرّسم حسب ما عرفوا من لغات القراءة؛ فكتبوا (الصّراط) مثلا في قوله تعالى:{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [الفاتحة : 6]، بالصّاد المبدلة من السّين، وعدلوا عن السّين الّتي هي الأصل، لتكون قراءة السّين (السّراط)، وإن خالفت الرّسم من وجه، فقد أتت على الأصل اللّغويّ المعروف؛ وروي عن الأصمعي أنّه قال: " اختلف رجلان في الصّقر، فقال أحدهما: الصّقر(بالصّاد)، وقال الآخر: السّقر (بالسّين)، فتراضيا بأوّل وارد عليها، فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنّما هو الزّقر"37، وقد قرئ قوله تعالى: {السّراط المستقيم} الزّراط والصّراط، كما ذكر أبو الطّيب اللّغويّ أنّ أبا حاتم السّجستاني قال: " قلت لأمّ الهيثم: هل تبدل العرب من الجيم (ياء) في شيء من الكلام؟ فقالت: نعم، ثمّ أنشدتني:

إذا لم يكنْ فيكُنَّ ظلٌّ وجنَى فأبعدكُنَّ اللهُ من شِيرَاتِ"38

وتريد (شجرات)، ومثل هذا الإبدال موجود كذلك في اللّهجات الخليجيّة حاليا، فهم يقولون: (ريال) ، يقصدون (رجال)؛ أي: (رجل) بالفصحى، وقد جاء في إبدالها شيء عن العرب، كما نقل عن راجز قوله: " إذ ذاكَ إذْ حبْل الوصالِ مُدْمَشْ؛ أي: مُدْمجَ، فالشّين بدل من الجيم"39، ومن ذلك أيضا قراءة عبد الله بن مسعود، وابن عبّاس لقوله تعالى:{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}[البقرة : 61]، (وثومها) بالثّاء، قال ابن جني: " الثّوم والفوم بمعنى واحد؛ كقولهم حدث

المنارة للاستشارات

وحدف، وقام زيد ثمّ عمرو، ويقال أيضا: (فمّ) عمرو، فالفاء بدل فيهما جميعا...، والكثرة (ثمّ) والقلّه (فمّ) ولذلك قضينا بأنّ الفاء بدل من الثّاء"40. وللإشارة فإنّ مثل هذا الإبدال موجود في بعض اللّهجات العربيّة الحديثة، ومنها الجزائريّة، حيث تنطق لفظة (ثَمَّ): (فَمَّ)؛ أي: (ثمَّةَ)، وذلك بإبدال الفاء مكان الثّاء، وتتحوّل إلى (تاء) كذلك في بعض الجهات من الجزائر، وفي مصر أيضا، فيقال: (تلاتة) يقصد بها (ثلاثة)، ومنهم من يبدلها (سينا)، كما هو الحال في مصر وبلاد الشّام، حيث يقال: (سواني) لكلمة (ثواني).

وإذا انتقلنا إلى (القاف) فسنجد أنّها قد أصابها نصيب لا بأس به من التّحوّلات الصّوتيّة، "ولم يحافظ على نطقها السّليم سوى مجيدي القراءات القرآنيّة، فهي صوت شديد مهموس"41، وهي عند القدماء تعدّ صوتا مجهورا، ويبدو أنّ مثل هذا التّغيير في صوت القاف كان موجودا في البيئة العربيّة قديما، كما روى ذلك ابن جنيّ بقوله: " أخبرني أبو علي قراءة عليه عن أبي بكر عن بعض أصحاب يعقوب أنّه قال: (قال الفرّاء: قريش تقول: كشطت، وقيس وتميم تقول: قشطت)"42.

وقد قسّم العلماء القراءات القرآنيّة ووضعوا شروطا لصحّتها، وحكمتهم في ذلك هي نظرتهم إلى القراءة باعتبارها وسيلة للتّعبّد، وشرطا لصحّة الصّلاة ومصدرا للتّشريع، أمّا اللّغويّون فقد كانت نظرتهم إلى القراءة باعتبارها أحد المصادر اللّغويّة المعتمدة؛ ويتلخّص موقفهم في تطبيق الشّاهد اللّغويّ على القراءة، فما استوفاها قبلوه، وما أخلّ بها استبعدوه، فهم لم يشترطوا تواتر القراءة، ولا اتّصال سندها، فاللّغويّ يتعامل مع القراءة على أنّها نصّ عربيّ رواه أو قرأ به من يوثق بعربيّته، وبهذا يدخل في باب الاحتجاج اللّغويّ كثير ممّا رفضه القراء والأصوليّون، يقول الزّركشي: " وقد نقل ما لم يستوف الشّروط لفوائد، منها ما

المنارة للاستشارات

يتعلّق بعلم العربيّة لا القراءة بها"43، وبهذا ينبغي أن تدخل جميع القراءات بكلّ مستوياتها ودرجاتها في الدّرس اللّغويّ دون حرج. ولا طالما عدّ النّحاة الأوائل القراءات القرآنيّة سنّة ولا يصحّ التّعرّض لها بتخطئة أو تصويب، حتّى إنّهم كانوا يسرفون في التّأويل والتّقدير في آيات القرآن الّتي تخالف القياس الّذي وضعوه لقواعد اللّغة العربيّة؛ كما فعلوا في قوله تعالى:{ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا} [طه : 63]، وذلك من أجل إزالة الاختلاف الموجود بين النّص القرآنيّ والقاعدة النّحويّة، وهذا لحسن التّأويل للمطابقة وما قدّروه موقعه، " فقالوا: هي لغة بلحارث بن كعب، يقولون: مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه، وأنشدوا:

تزوّدَ منَّا بين أذناهُ ضربةً دعتْهُ إلى هابي التّرابِ عقيمِ

على أنّ القرّاء اختلفوا في هذا الحرف، فقرأه أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثّقفي: {إنّ هذين لساحران}، وذهبا إلى أنّه غلط من الكتّاب كما قالت عائشة (رضي الله عنها) "44.

ومن ظواهر اللّهجات العربيّة نجد (المثنى)، فأحيانا يدخل المثنى في حيّز الجمع؛ حيث نجد ابن جنّي قد أعطى للتّثنية معنى وظيفيّا يدلّ فيه على العموم، وذلك في توجيهه لقراءة زيد ابن ثابت وابن مسعود والحسن { فأصلحوا بين إخوانكم } بخلاف القراءة العامّة لقوله تعالى:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات : 10]، فقد قال: " هذه القراءة تدلّ على أنّ القراءة العامّة الّتي هي: { بين أخويكم } لفظها لفظ التّثنية ومعناها الجماعة؛ أي كلّ اثنين فصاعدا من المسلمين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ألا ترى أنّ هذا حكم عامّ في الجماعة؟"45، وفي الوقت الحاضر يكاد المثنى يخفى في وسطنا الكلاميّ العاميّ، حيث يشار إليه بالعدد فقط؛ فعوض أن يقول الطّالب: اشتريت كتابين أو عندي كتابان، فهو للأسف يسقط علامة التّثنية ويهملها تماما بقوله: اشتريت زوج

المنارة للاستشارات

كتب، وعندي زوج كتب. كما يجب الإشارة إلى ما ورد في القرآن ممّا يخالف أحد أحكام الفاعل، المتعلّق بوجوب بقاء الفعل معه بصيغة المفرد (الواحد)، وإن كان مثنى أو مجموعا، إلاّ أنّ هناك لغة ضعيفة لبعض العرب –وهم بلحارث بن كعب، وأزد شنوءة، وطيء، وضبة –» يطابق فيها الفعل الفاعل؛ فيقال على هذه اللّغة: أكرماني صاحباك، وأكرموني أصحابك"46، ومنه قول الشّاعر عبيد الله بن قيس الرّقيات في رثاء مصعب بن الزّبير بن العوام (رضي الله عنهما):

تَولَّى قتالَ المارقينَ بنفسِهِ وقد أسلماهُ مُبعَدٌ وحَميمُ"47

فبعض النّحويّين حمل على تلك اللّهجة قوله تعالى: { لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ} [الأنبياء : 3]، وبالتّالي تتعدّد الأوجه الإعرابيّة لكلمة (الّذين)، فيعرب الظّاهر بدلا من المضمر، أو يعرب مبتدأ، والجملة قبله خبر مقدّم، أو يعرب فاعلا لفعل محذوف؛ فكأنّه قيل – بعد قوله: { وأسرّوا النّجوى }: من أسرّها؟ فيقال: أسرّها الّذين ظلموا، وهذا لا يكون إلا حيث يستدعي المقام تقدير كلام استفهاميّ، وأمّا على تلك اللّغة، فيعرب الظّاهر فاعلا، وتكون الألف والواو والنّون أحرفا للدّلالة على التّثنية أو الجمع فلا محلّ لها من الإعراب، وحكمها حكم تاء التّأنيث مع الفعل المؤنث، وقد قال ابن مالك عن تلك اللّهجة:

وجَرِّدِ الفعلَ إذا ما أُسنِدَ لاثنينِ أو جمعٍ ك: " فازَ الشُّهدا "
وقد يُقالُ: سَعِدا، وسَعِدوا والفعلُ للظّاهرِ – بعدُ– مُسنَدُ.

وكان معظم النّحويّين القدامى من القرّاء المشهورين، كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد، والكسائي قد تأثّرت قراءاتهم بالإرث الشّفويّ عن طريق التّواتر بسند صحيح، حيث تكلّم ابن خلدون عن ذلك؛ فقال:" فلمّا جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الّذي كان في أيدي الأمم والدّول، وخالطوا العجم فتغيّرت تلك الملكة بما ألقى إليها السّمع من المخالفات الّتي للمستعربين، والسّمع

المنارة للاستشارات

أبو الملكات اللّسانيّة، ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السّمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول بها العهد، فينغلق القرآن والحديث على الفهم، فاستنبطوا لمجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة ."48

4)- الألفاظ غير العربيّة في القرآن: طبع النّاس على الاختلاف لقوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13]، ولكلّ إنسان صورته الفريدة ونبرته المميّزة وطريقته في التّفكير وغير ذلك؛ كما قال تعالى:{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [الروم : 22]، فالتّنوع آية من آيات الله تعالى وهو مصدر إثراء، فقد اشتمل القرآن الكريم على ألفاظ قيل أنّها غير عربيّة؛ (وهي ما يسمّى ب: غريب القرآن) " الّتي يبهم معناها على كافّة العرب، ويحتاج لفهم مدلولها إلى ثقافة لغويّة وأدبيّة خاصّة"49، وقد ظهرت عدّة مؤلفات قديما وحديثا في هذا الموضوع؛ ولعلّ أوّلها " تفسير ابن عبّاس (ت68هـ) - رضي الله عنهما- لنحو مائتي كلمة من غريب القرآن فيما عرف بمسائل نافع ابن الأزرق، فقد كان يجيبه ويستشهد لكلّ كلمة يفسّرها ببيت من الشّعر الجاهليّ ."50

فلا خلاف أنّه ليس في القرآن كلام مركّب على غير أساليب العرب، وأنّ فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير عربي؛ كإسرائيل، وجبرائيل، ونوح، ولوط،... حيث شمل القرآن بعض الكلمات قيل عنها إنّها غير عربية مثل: السّندس، والإستبرق، والمشكاة، والسّجيل، والقسطاس، والتّنور، والياقوت،...)، غير أنّ الاختلاف كان ولا يزال قائما بين العلماء في هذا الأمر، فقد أنكر بعض أعلام السّلف مسألة اشتمال القرآن الكريم على كلمات غير عربيّة مطلقا، بدليل قوله تعالى:{ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الزخرف : 3]، فالإمام الشّافعيّ

المنارة للاستشارات

(رحمه الله) ينكر أن يكون في القرآن كلام غير عربيّ، بقوله: " والقرآن يدلّ على أن ليس في كتاب الله شيء إلاّ بلسان العرب"51، واستشهد بآيات من القرآن؛ كقوله تعالى:{ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} [الشعراء : 195]، وقال أيضا:{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [الشورى : 7]، فأقام الحجّة بأنّه عربيّ، ثمّ أكدّ ذلك بأن نفى كلّ لسان غير لسان العرب في آيتين من كتاب الله، ففي الأولى قال عزّ وجلّ:{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل : 103]، وفي الثّانية قال:{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} [فصلت : 44].

وكان رأي الشّوكاني مخالفا لرأي الشّافعي، بقوله: " والمراد بالمعرّب ما كان موضوعا لمعنى عند غير العرب، ثمّ استعملته العرب في ذلك المعنى؛ كاسماعيل، وإبراهيم، ويعقوب، ونحوها، ومثل هذا لا ينبغي أن يقع فيه خلاف والعجب من نفاه...، وقد أجمع أهل العربيّة على أنّ العجمة علّة من العلل المانعة للصّرف في كثير من الأسماء الموجودة في القرآن، فلو كان لذلك التّجويز البعيد تأثير لما وقع منهم هذا الإجماع "52، أمّا الطّبري فقد حاول أن يوفّق بين تلك الآراء، فردّ في مقدمة تفسيره بهذا القول: " إنّ الّذين نسبوا هذه الكلمات إلى لغة الفرس أو الرّوم أو الحبش أو غيرها لم ينفوا أنّها عربيّة، فهم يشيرون فحسب إلى أنّها موجودة في لغة الفرس، لأنّ من نسب شيئا من ذلك إلى ما نسب إليه لم ينف بنسبة إيّاه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيّا، ولا من قال منهم: هو عربيّ نفى ذلك أن يكون مستحقا النّسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم"53، وقال أبو عبيد القاسم في هذا الشّأن: " أمّا لغات العجم في القرآن فإنّ النّاس اختلفوا

المنارة للاستشارات

فيها، فروي عن ابن عبّاس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء، وغيرهم من أهل العلم أنّهم قالوا في أحرف كثيرة إنّها بلغات العجم؛ منها قوله: طه، واليمّ، والطّور، والربّانيّون، فيقال: إنّها بالسّريانيّة، والصّراط، والقسطاس، والفردوس، يقال: إنّها بالرّوميّة، ومشكاة، وكفلين، يقال: إنّها بالحبشيّة، وهيت لك، يقال: إنّها بالحورانيّة. قال: هذا قول أهل العلم من الفقهاء"54.

وقد رجّح ابن فارس رأي أبي عبيد الّذي يجمع بين الرّأيين، حيث قال: " والصّواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا، وذلك أنّ هذه الحروف أصولها أعجميّة كما قال الفقهاء، إلاّ أنّها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها، وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربيّة، ثمّ نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنّها عربيّة فهو صادق، ومن قال عجميّة فهو صادق"55، فهي ألفاظ عجميّة باعتبار الأصل عربيّة باعتبار الحال، وأمّا اشتمال القرآن على ألفاظ مأخوذة من اللّغات الأخرى، " فهي قد عرّبت فصارت معرّبة وليست أعجمية، واللّفظ المعرّب عربيّ كالّذي وضعه العرب، فقد اشتمل الشّعر الجاهليّ على ألفاظ معرّبة؛ ككلمة (السّجنجل)"56، بمعنى: (المرآة) في شعر امرئ القيس، وغيرها من الألفاظ؛ "وقال بعضهم: زجنجل، وقيل هي رومية دخلت في كلام العرب"57، حيث قال امرؤ القيس58:

مهفهفة بيضاء غير مفّاضة ترائبها مصقولة كالسّجنجل.

كما وردت كلمة (يستبرق) في قول شاعر آخر59:

يستبرق الأفق الأقصى إذا ابتسمت لمع السّيوف سوى أعمادها القضب.

وذكرت كلمة (قسطاس) في بيت لامرئ القيس قال فيه60:

ردّي علي كميت اللّون صافية كالقسطاس عليه الورس والحسد.

" فقد قيل عربيّ مأخوذ من القسط،؛ وهو العدل، وقيل روميّ معرّب بضمّ القاف وكسرها، وقرئ بهما في السّبعة، والجمع قساطيس"61. وبالنّسبة لكلمة (المشكاة) في قوله جلّ ثناؤه:{ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ }

المنارة للاستشارات

[النور : 35]، قال ابن جني: " ألف مشكاة منقلبة عن واو بدليل أنّ العرب قد نحو بها منحاة الواو كما يفعلون بالصّلاة "62، كما أورد صاحب اللّسان قول أبي منصور: " أرادوا بالمشكاة قصبة الزّجاجة الّتي يستصبح فيها، وهي موضع الفتيلة شبهت بالمشكاة، وهي الكوّة التي ليست بنافذة "63.

فقد اصطلح العلماء على تسمية هذه الألفاظ الواردة في القرآن الكريم بالغرائب، " وليس المراد بغرابتها أنّها منكرة أو نافرة أو شاذّة، فإنّ القرآن منزه عن هذا جميعه؛ وإنّما يقصد بها الألفاظ الّتي تكون حسنة مستغربة في التّأويل، بحيث لا يتساوى في تفسيرها أهل العلم، وجملة ما عدّوه من ذلك في القرآن كلّه، سبعمائة لفظة أو تزيد قليلا جميعها روي تفسيرها بالسّند الصّحيح عن ابن عباس (رضي الله عنه)"64؛ وهي كلمات أخرجتها العرب على أوزان لغتها، وأجرتها في فصيحها فصارت بذلك عربيّة، ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعرّبة الّتي اختلطت بالقرآن: "إنّ بلاغتها في نفسها أنّه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات لا إفرادا ولا تركيبا"65.

وقد تتبّع الدّكتور عبد الصّابور شاهين الألفاظ الأعجميّة الواردة في القرآن الكريم في كتابه القراءات القرآنيّة على ضوء علم اللّغة الحديث؛ وهي مبيّنة في الجدول الآتي؛ مع إضافة شرح مختصر بالاعتماد على كتاب تفسير الجلالين66 :

الألفاظ الأعجميّة	**نسبتـها**	**الآيـات**	**شرحها**
راعنا	عبريّة	البقرة104	هي سب من الرّعونة بلغة اليهود.
قسطاس	روميّة	الإسراء35	الميزان السّوي
كافورا	فارسيّة	الإنسان5	
هدنا	عبريّة	الأعراف156	تبنا

المنارة للاستشارات

التّابوت	حبشيّة–آرميّة–عبريّة	البقرة248	الصّندوق
الصّراط	روميّة	الفاتحة6	السّبيل
استبرق	فارسيّة	الرّحمن54	ما غلظ من الدّيباج
آزر	عبريّة	الأنعام74	وهو لقبه واسمه تارخ
القمّل	سريانيّة–عبريّة	الأعراف133	السّوس أو نوع من القراد فتتبع ما تركه الجراد
صواع	حبشيّة	يوسف72	صاع
إبراهيم	عبريّة	الأعلى	اسمه
سينين	نبطيّة–حبشيّة	التّين2	الجبل المبارك أو الحسن بالأشجار المثمرة
ملكوت	عبريّة–آرميّة	يسن83	ملك، أي القدرة على، وزيدت الواو والتّاء للمبالغة
فومها	عبريّة	البقرة61	حنطتها
السّجل	حبشيّة–فارسيّة	الأنبياء104	الكتاب
الطّاغوت	حبشيّة	البقرة256	الشّيطان أو الأصنام، وهو يطلق على المفرد والجمع
حصب	عبريّة	الأنبياء98	وقودها
طوى	عبريّة	طه12	المطهّر أو المبارك
درست	عبريّة	الأنعام105	ذاكرت كتب الماضين
حواريّون	حبشية–نبطية	الصّف14	من الحور وهو البياض الخالص، وهم أصفياء عيسى وكانوا اثني عشر رجلا.

ويرى الدّكتور عبد الصّبور شاهين:" أنّه لا صحّة لدعوى العجمة في جميعها، سواء أكانت ساميّة أم غير ساميّة"67؛ فإمّا أن تدخل هذه الألفاظ في

المنارة للاستشارات

باب المشترك السّاميّ، أو أنّها عرّبت منذ زمن وزالت منها معالم العجمة، وأصبحت عربيّة ذات أصل اشتقاقيّ كامل التّصريف. فإنّ اللّغات السّاميّة – وهي اللّغات الّتي يتكلّم بها الكلدنيّون، والآشوريّون في العراق، والسّريانيّون والفينقيّون والعبرانيّون في الشّام، والحبشة وراء السّاحل العربيّ من البحر الأحمر– كنّ في العصور الأولى متشابهات؛ بحيث تعدّ كلهنّ لهجات للغة واحدة (السّاميّة) " لذلك استطاع سيّدنا إبراهيم (عليه السّلام) أن يتنقّل بين العراق والشّام ومصر والحجاز، وأن يتفاهم مع جميع سكّان تلك الأقطار، إذ لم يكن بين لغاتها من فرق إلاّ كما يوجد الآن بين لهجات العربيّة"[68].

أمّا الآيات الّتي وردت في القرآن على شكل حروف، كأوائل السّور مثل: (ألم)، و(ق)، و(كهيعص)، و(طه)، و(يس)، و(حم) وغيرها، فقد خفي عن العلماء تفسيرها؛ فتوصّل بعضهم بعد جمع كلّ الحروف ثمّ حذف ما تكرّر منها إلى تكوين جملة من أربعة عشر حرفا – وهو ما يمثّل نصف حروف العربيّة–؛ وهي: (نصّ حكيم قاطع له سر)، واعتبر ذلك من الآيات المتشابهات كما في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [آل عمران : 7].

الهوامش:

[1] - عائشة عبد الرحمن (بنت الشّاطىء)، القرآن والتّفسير العصريّ، ص16.
[2] - مصطفى صادق الرّافعيّ، إعجاز القرآن، ص: 13.
[3] - المرجع السّابق، ص: 274.
[4] - عبد الصبور شاهين، دراسات لغوية، ص:87.
[5] - المرجع السّابق، ص: 29.
[6] - عبد الصبور شاهين، عربية القرآن، ص: 30.
[7] - مصطفى صادق الرّافعيّ، إعجاز القرآن، ص: 13.

المنارة للاستشارات

[8] - النّحو المنهجيّ، محمد أحمد برانق، مطبعة لجنة البيان العربيّ، مصر، ص: 05 وما بعدها.
[9] - الخصائص، ابن جنّي، 11/2.
[10]- ابن منظور، لسان العرب، (الهمزة).
[11] - ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر، 429/1.
[12] - إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغويّة، مكتبة الأنجلو مصريّة، القاهرة، 1975م، ص:90.
[13] - إبراهيم أنيس، في اللّهجات العربيّة، ص: 60.
[14] - ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، 35/2.
[15] - المرجع السّابق، 285/1.
[16] - ابن منظور لسان العرب، مادّة (قنط).
[17] - السّيوطي، المزهر، 275/2.
[18] - أبو حيان، البحر المحيط، ط6، دار الفكر، 1952م، 194/8.
[19] – التّواتي بن التّواتي، القراءات القرآنيّة وآثارها في النّحو العربيّ والفقه الإسلاميّ، ص: 108.
[20] - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، بيروت، ص: 30.
[21] - ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، مراجعة وتحقيق: علي محمّد الضّباع، دار الفكر، (د ت)، ج24/1.
[22] - أحمد مختار عمر ، قاموس القرآن الكريم، ص: 60.
[23] - السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، 1973م، 80/1.
[24] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن، ص:45.
[25] - التّواتي بن التّواتي، القراءات القرآنيّة، ص: 273.
[26] - التواتي بن التواتي، القراءات القرآنية، ص: 94-95.
[27] - المرجع السّابق، ص: 99.
[28] - المرجع نفسه، ص: 101.
[29] - أحمد مختار عمر ، قاموس القرآن الكريم، ص: 41.
[30] - ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، 22/1.
[31] - المرجع السّابق، 23/1.
[32] - صبحي صالح، مباحث في علوم القرآن، ص: 112-113.
[33] - عبد المنعم النّمر، علوم القرآن الكريم، ص:150.
[34] - المرجع السّابق، ص: 150.
[35] - التّواتي بن التّواتي، القراءات القرآنيّة، ص،127.
[36] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن، ص: 59.
[37] - ابن جني، الخصائص، 373/1-374.
[38] - ينظر: عبد الكريم مجاهد، علم اللّسان العربيّ، ص: 346.
[39]- ابن جني، سر صناعة الإعراب، 205/1.
[40]- المرجع السّابق، 171./1
[41] - رمضان عبد التّواب، التّطوّر اللّغويّ، ص: 20.
[41] – ابن جني، الخصائص، 370/1.
[42] - الزّركشي، البرهان، 332/1.

المنارة للاستشارات

[43] - التّواتي بن التّواتي، القراءات القرآنيّة، ص: 215، والبيت لهبر الحارثي، ورد في الجمهرة، 323/2.
[44] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 103.
[45] - المرجع السّابق، 278/2-279.
[46] - مصطفى الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، 239/2.
[47] - محمود سليمان ياقوت، النّحو التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم، ص: 579-580.
[48] - المرجع السّابق، ص: 502.
[49] - أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم، ص: 103.
[50] - عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني للقرآن، ص269.
[51] - الشّافعيّ، الرّسالة، ص: 46.
[52] - الشّوكاني، إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، ص: 32.
[53] - الطّبري، البيان في تفسير القرآن، ج31/1.
[54] - السّيوطي، المزهر، ج298/1.
[55] - ابن فارس، الصّاحبي، ص: 62-63.
[56] - التّواتي بن تواتي، القراءات القرآنيّة، ص: 56.
[57] - لسان العرب، ابن منظور، ج 327/11.
[58] - محمد أبو الفضل إبراهيم، ديوان امرئ القيس، ص:15.
[59] - ابن منظور، لسان العرب، ج 15/10.
[60] - الخليل بن أحمد، العين، ج249/5.
[61] - المصباح المنير، 503/2.
[62] - ابن جنّي، الخصائص، ج285/3-286.
[63] - ابن منظور، لسان العرب، ج 441/14.
[64] - مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن، ص: 61.
[65] - المرجع السّابق، ص: 62.
[66] - جلال الدّين المحلّي وجلال الدّين السّيوطيّ، تفسير الجلالين.
[67] - عبد الصّبور شاهين، القراءات القرآنيّة، ص: 373.
[68] - عبد الصّبور شاهين، عربيّة القرآن، ص: 28.

المنارة للاستشارات